الفصل الثالث:

العالمية: المجال الكوني للعمل التغييري والدعوي ومنهجية الدمج والاستيعاب والتجاوز

أولاً: في المفهوم والدلالة الشرعية والتاريخية

درجت كثير من الدعاوى قديماً وحديثاً، من طرف مستشرقين وغيرهم على التشكيك في عالمية الإسلام وقدرته على التوسع والاستيعاب، وإذا ما تتبعنا بعضاً منها نجد أن أهم حججهم كما يرى طه جابر العلواني: أن القرآن عربي اللغة لا يفهمه غير العرب، وأنه مقيد بأسباب نزول تختص بالعرب، وأن الرسول ﷺ لم يدْعُ في أول أمره إلى رسالة عالمية، ولمَ يدَّعِ ذلك ولم يفكر فيه، ويستند هؤلاء إلى آيات من القرآن المكي من قبيل قوله تعالى: ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَآ﴾ [الأنعام: ٩٢] ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ [الزخرف:٤٤]، ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤].

والحق أنهم لو انصفوا وتدبروا لألفوا القرآن نفسه يرد عليهم دعواهم بما لا يقبل الشك، حيث أعلن في مواضع شتى أنه كتاب عالمي، وأن رسالة محمد رسالة للعالمين، لا لقريش وحدها، ولا للعرب وحدهم. وحينما أتيحت له أول فرصة بعد صلح الحديبية، بادر عليه الصلاة والسلام بإرسال رسائله إلى ملوك الأرض، إلى كسرى وقيصر والنجاشي والمقوقس وغيرهم. أما الآيات المستند إليها فهي تتحدث عن التدرج في الدعوة والإنذار وفق منهج واقعي حكيم.

أما إناطة هذه الرسالة بالعرب، مادتها الأولى، فإننا نجد تخريجاً لطيفاً لابن عاشور يلتمس فيه حيثيات يفسر بها هذا التخصيص. فالعرب اختارهم الله لهذه

الأمانة، لأنهم يومئذ امتازوا من بين سائر الأمم باجتماع صفات أربع لم تجتمع في التاريخ لأمة من الأمم، وتلك هي: جودة الأذهان، وقوة الحوافظ، وبساطة الحضارة والتشريع، والبعد عن الاختلاط ببقية أمم العالم. فهم أهلٌ لفهم الدين وتلقينه. وأهلٌ لحفظه وعدم الاضطراب في تلقيه. وأهل لسرعة التخلق به إذ هم أقرب إلى الفطرة السليمة، وأهلٌ لمعاشرة بقية الأمم إذ لا حزازات بينهم وبين الأمم الأخرى إلا في النادر، وكان معظمها بين قبائلهم.

وهكذا فإن النبي بدعوته ومثاله يشكل استمراراً لوصية نوح وإبراهيم وموسى وعيسى، إنه يماثلهم ليس في نبوته فقط، بل في دعوته أيضاً كما يرى رضوان السيد، وهذا ما يقرره ويؤكده حديث "اللبنة" الذي اعتبر النبي ﷺ فيه نفسه استمراراً للبناء السابق عليه وتتميماً، بل وختماً له، "مثلي ومثل الأنبياء قبلي كمثل رجل ابتنى داراً فأحسنها وأكملها إلا موضع لبنة، فجعل الناس يدخلونها ويتعجبون منها ويقولون: لولا موضع هذه اللبنة"، "قال: فأنا اللبنة، وأنا خاتم النبيئين". وقوله: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨] معناه: أنزلناه متلبساً بالحق مؤيداً به، مشتملاً عليه، مقرراً له، بحيث لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، مصدقاً لما تقدمه من الكتب الإلهية كالتوراة والإنجيل، أي ناطقاً بتصديق كونها من عند الله، وأن الرسل الذين جاءوا بها لم يفتروها من عند أنفسهم. وأما قوله ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨] هناك من يجعل معنى الهيمنة يشمل مفهوم التصديق نفسه، وذلك فيما له علاقة بالمثال العام من جهة، وفيما له علاقة بالتنزيل الخاص من جهة أخرى. ويمكن إجمال خصائص الخطاب القرآني العالمي كما يرى جابر العلواني في أربع خاصيات كبرى وهي: العالمية، باعتباره الكتاب الأخير المنزل على النبي الخاتم والرسول الأخير ﷺ. والإطلاق، نقيض النسبية التي تعني المحدودة، والتصديق، وحاكمية الكتاب.

يرى العلواني أن البعد التوحيدي لهذه العالمية القائمة أساساً على مبدأ توحيد المعبود، وتوحيد الوجهة والقصد في أمور وقضايا الاستخلاف والتعمير، وتوحيد

التشريع وفلسفته.. يعد من أهم عوامل وحدة الأمة وتماسكها، وقوة صفها وبنائها، وقدرتها على الاستيعاب والدمج والتجاوز بما تتيحه من حرية اعتقاد وتدين، وبما توفره من أمن وحماية للأقليات والمخالفين، وبما هي تكريم أصلاً للإنسان. ويرى أن أصحاب عقيدة التوحيد يملكون أن يتقدموا للبشرية بالشيء الذي تفقده جميع المناهج والمذاهب والنظم والأوضاع في الأرض كلها بلا استثناء. ومن ثم يكون لهم اليوم وغداً دور عالمي إنساني كبير، ودور قيادي أصيل في التيارات العالمية الإنسانية. دورٌ يمنحهم سبباً وجيهاً للوجود العالمي الإنساني، كالدور الذي منح العرب الأميين في الجزيرة العربية سبباً وجيهاً للوجود العالمي الإنساني، وللقيادة العالمية الإنسانية...وأن الخروج من هذا المأزق والانطلاق السليم لإعادة بناء المشروع الإسلامي البديل، لا يحتاج إلى تأسيس جديد بقدر ما يحتاج إلى إعادة اكتشاف وتشغيل لمشروع تتلخص دعائمه الكبرى في إيجاد: إنسان التغيير الرسالي الواعي بذاته وبمهمته.. والأمة الخيرة الوسط، المخرجة إلى الناس. والعالمية المستوعبة للبشرية المتجاوزة لكل أنواع الخطاب الحصري. والحاكمية المهتدية بكتاب الله الحاكم. وشرعة تخفيف ورحمة ووضع للحرج ووضع للإصر والأغلال وتحريم الخبائث وتحليل الطيبات.

ثانياً: العالمية والخصوصية في الخطاب العربي والإسلامي المعاصر

نقف هنا على امتدادات إشكال هذا الخطاب وطرق معالجته وبعض آثاره. كما يتجلى ذلك في الخطاب الفكري المعاصر، مع الدفع باتجاه الحل المعرفي بين مظاهر التشديد والتأكيد على العالمية، ولو كانت على حساب الخصوصية، أو على الخصوصية ولو كانت على حساب العالمية، وكان هناك تعارضاً بينهما يقضي أن لا يقوم أحدهما إلا على أنقاض الآخر، والأمر غير هذا إطلاقاً. فجوهر الخلاف ترتيبي أولوي حسب المبررات والنظرة التفسيرية لدى كل اتجاه للأوضاع القائمة.

تحدثنا من قبل عن مفهوم الأمة: باعتبارها الإطار أو الوعاء الشرعي والتاريخي والواقعي لهذا العمل. وعن المرجعية باعتبارها قاعدة ومنطلق الأمة، أو هويتها وخصوصيتها الحضارية. وعن العالمية باعتبار وظيفة التبليغ والدعوة والشهادة المنوطة بهذه الأمة. ولعل الإشكال المطروح على الساحة الفكرية المعاصرة كما يرى عمر عبيد حسنة هو كيفية التوفيق بين مطلب العالمية التي هي جزء لا يتجزأ من خطاب القرآن، ومن ثقافة وحضارة الإسلام، وبين مطلب «العالمية» و"الإنسانية" التي تنادي و"تبشر" بها الدوائر الغربية والتي تقوم على حل الخصوصيات وإذابتها. والذي يعبر عنه الآن بمصطلح (العولمة) التي تحمل كل معاني وأشكال المصادرة والإلحاق والتبعية التي تمارسها بقوة المراكز على الأطراف.

إن الحضارة والثقافة العالمية، وصنع القرارات والخيارات الاستراتيجية، هي من شأن القوى الكبرى دون شك، وهي لا تنتظر «القوى الصغرى» حتى تكبر، أو النائمة حتى تستيقظ، لكن الأمم ذات المؤهلات العالمية بإمكانها أن تساهم إذا ما أحسنت تشغيل واستثمار إمكاناتها ومؤهلاتها. والأمة الإسلامية التي تحمل رسالة كونية، والتي حققت عالميتها الإسلامية الأولى، مرشحة أكثر من غيرها للقيام بهذا الدور. ولا يمكن أن يقف أمام العولمة الغربية بخلفياتها الاستبدادية والمركزية، إلا العالمية الإسلامية بخلفياتها الدعوية الانفتاحية. وقد قام الإسلام وما يزال بدور الفلسفة الشمولية الاستيعابية القادرة على حماية الوجود الوطني للمجتمعات في هذه المنطقة، عبر القرون منذ (ق٢) في مواجهة الصليبيين والصهيونيين والإمبريالية العنصرية مروراً بفترات الاستعمار، والإسهام في حل المشكلات العامة والخاصة، سواء تعلق الأمر بمشكلات الإنسان أو الطبيعة والبيئة أو غيرها.

وإن السعي إلى تأكيد الهوية.. حسب غليون لا يتناقض مع تكوين نظام عالمي، ولكنه يشكل مظهراً من مظاهره. فالنظام العالمي الذي يرفض الخصوصية هو النظام الذي يرفض المشاركة من موقع المسؤولية للآخرين ولا يقبل بهم إلا

كأتباع. ثم إن المسألة الأساسية في المشكلة ليست الدخول في العالم أو القبول بوحدته، ولكنها مسألة الفاعلية في هذا العالم، ونوع المشاركة والدور الذي تقوم به كل جماعة.. فطموح كل ثقافة صاعدة أو نازعة إلى "الهيمنة" العالمية هو أن لا تظهر إلا كثقافة إنسانية، وكدين الإنسانية يتجاوز المجتمعات التي أنجبته والحقب التي ظهر بها، وهذا من خصائص السيطرة نفسها، إذ هي تطمح بالتعريف إلى أن تكون عامة وشاملة...

ويرى مالك ابن نبي أن مصير أية جماعة إنسانية يتحدد جزء منه خارج حدودها الجغرافية. فالثقافة أصبحت تتحدد أخلاقياً وتاريخياً داخل تخطيط عالمي، لأن المنابع التي سوف تستقي منها أفكارها ومشاعرها والقضايا التي تتبناها والاستفزازات التي سوف تستجيب لها، والأعمال التي سوف تقوم بها لا تستطيع هذه كلها أن تتجمع في أرض الوطن. ولهذا فالمثقف المسلم.. ملزم بأن ينظر إلى الأشياء من زاويتها الإنسانية الرحبة حتى يدرك دوره الخاص ودور ثقافته في هذا الإطار العالمي. وإن من طبيعة الإسلام كما يرى الجابري أن يقيم للإنسانية جمعاء مثالاً للألفة والانسجام باجتذاب معتنقيه المنتسبين إلى أجناس متنافرة، ثم تحويل هذه المجموعة الذرية إلى أمة لها شعور بذاتها وكيانها الخاص. ولم يكن تحقيق هذا عملاً سهلاً، إلا أن من شأن الإسلام أن يجعل للمجتمع حياة نفسية مميزة له، وإن التراث العربي الإسلامي تراث حضارة عالمية، والثقافة العربية الإسلامية كانت تمثل خلال أوج ازدهارها ثقافة عصرها على مستوى عالمي. ثقافة متفتحة قابلة لاستيعاب كل أنواع الثقافات التي احتكت بها.

إننا بمراجعة هذه النقول التمثيلية، نقف داخلها على عنصرين بارزين يشكلان معاً واجب الأمة تجاه ذاتها وتجاه الخارج، ويمكن استخراجها في شكل ثنائيات بين كل زوج منها علاقة جدلية تقيم التوازن بينهما. ومن هذه الثنائيات نذكر:

• الفلسفة الشمولية للإسلام	• الوجود الوطني للمجتمعات.
• أمر رباني بالوحدة..	• واقع تجزيئي محدد.
• نظام عالمي..	• تأكيد الهوية.
• الضمير الإنساني، الحوادث العالمية	• أرض المولد التي تمد بالبواعث الحقيقية للمواقف العميقة.
• الإسلام دين غير إقليمي	• أمة لها شعور بذاتها وكيانها الخاص.
• التراث.. تراث حضارة عالمية ثقافة منفتحة قابلة للاستيعاب	• تراث، حضارة، ثقافة، عربية إسلامية.
• غزو عالمي إعلامي، ثقافي، أيديولوجي	• تجديد، إغناء، دفاع، مقاومة، حماية.. خصوصية، هوية..

ومن الضروري الإشارة هنا إلى التصور النقيض لـ "العالمية" المجردة عن أية خصوصية أو مرجعية، تصور "الخصوصية" الحريصة على التجزئة والتعددية المغلقة في إطار كيانات مختلفة ومتنافرة لا وزن لها. فإذا كان التصور الأول دعوى إلحاقية تبعية للمركزية الغربية، فإن الثاني دعوى تحطيمية لعناصر القوة والوحدة في جسم الأمة. وإذا كان الأول مناقضاً لمفهوم العالمية الإسلامية، فإن الثاني مناقض لمفهوم الأمة الإسلامية، فلا يقل خطر هذه عن تلك.

ولهذا نجد الإسلام بمميزاته تلك كما يقول شلق قد استطاع أن يستوعب في إطاره الجغرافي البشري سائر الحضارات والثقافات والأعراف البشرية، متجاوزاً ثنائية الشرق والغرب، مع تأصيل مفهوم أن محمداً عليه الصلاة والسلام، هو خاتم النبيين، وأن الإسلام هو خاتم الرسالات. ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩]، ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥] فهو الحق الذي تكون به الهداية، والتعبير عنه ببعض مضامينه أو أصوله ومبادئه هو إبراز لها حسبما يقتضيه كل سياق، ولا شك أن التعبير هنا بالهدى والحق، هو تأكيد على مبادئ وقيم عليا من شأنها أن تجمع وتوحِّد لا أن تفرِّق وتجزئ، وأن تترك الباب مفتوحاً لكل ناشد لها أو عامل من أجلها، لتستوعبه في منظومته التوحيدية.

ومن ينظر إلى الفتح الإسلامي للعالم، يجد أن رغبة الفاتحين لم تكن مغانم الدنيا، وإنما كانت دعوة إلى حياة تستند إلى مصدر إلهي يعطيها معنى ومغزى يصعب نيلها بالأشياء المادية وحدها، هذا التوازن بين الدنيا والمقدس في وعي الفاتحين جعلهم يتخذون الفتح وسيلة لا غاية، وبالتالي استطاعوا إقامة مجتمع جديد ذي ثقافة موحدة اندمجت فيه مجتمعات وثقافات متعددة، ولم يكن هذا الدمج ممكناً إلا لأن العملية ساهمت فيها مساهمة كبرى الشعوب المغلوبة، ولم تفرض على تلك الشعوب ثقافة العرب التي حملوها معهم من شبه الجزيرة العربية، بل تكونت ثقافة جديدة أسهم فيها الجميع كأطراف لقضية واحدة دون أن يفرض الغالب نفسه ليشعر الآخرون بأنهم مغلوبون، ودون أن يكون بينهما حاجز مادي أو نفسي كما يحصل غلبة شعب على آخر.

ومن يقارن هذا بالاستعمار الغربي، يجد أن الغرب الذي حقق فتوحات واسعة، واكتشافات جديدة، ورفع راية دعوة تمدينية وتحديثية.. وتشكل في الوقت نفسه من أمم قومية ما استطاع أن يستوعب الشعوب الأخرى وأن يستميلها إليه. وهو الفرق بين "الفتح" الذي أساسه الدعوة، وقوامه العدل.. وبين "الاستعمار" الذي أساسه الاستغلال والاستنزاف، وقوامه التبعية والإلحاق.

ولهذا فرغم كون الإسلام خاتمة الأديان إلا أنه يعترف بالأديان السابقة عليه ويمد جسور التعاون معها، ولهذا كان تعبيره بـ "أكملت" و "أتممت" أبلغ في أداء هذا المعنى من "أنهيت" كما في قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] وفي تشريعاته ومبادئه ما يسمح للشعوب والأقوام بالانضواء تحتها أو الالتفاف حولها. وفي مبدأ التوحيد، ما يسمح بالتحرر والانعتاق من كل أشكال الاستبداد والارتهان والاستعلاء.. التي تمارسها قوى الاستكبار العالمية.

إن بعث مفهومي الأمة والعالمية في الفكر الإسلامي والعربي المعاصر هو تحول نوعي في مناهج ورؤى الإصلاح والتجديد والتغيير. وإنه من الفروض المعطلة في فكرنا وعملنا الراهن، ولا يتوجه الاعتراض عليهما بالخصوصية والمحلية لسببين واضحين: أولهما: لا يتعارضان مع إصلاح الذات وحل مشاكلها، والثاني: أنه لا يمكن الانكفاء على الذات قصد التغيير والإصلاح في أي مجال من مجالاتها، فإما أن ترقى بنفسها إلى مستوى المشاركة في صناعة تلك القرارات، وإما أن تقبل بها كما تقررها الجهات المتغلبة.

obeikan.com